شرح صلاة ابن العربي الحاتمي
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآلِهِ وصَحْبِهِ وسلَّم تَسْليماً

شَرْحُ التَّصْلِيَةِ عَلَى النَّبِي، لابْنِ الْعَرَبِي الْحَاتِمِي

يقول الْعَبْدُ الفقير، إلى مَوْلاه الْغَنِي عَمَّا سِوَاهُ: أحمد بن محمَّد بنعجيبة الحَسَني رضي الله عَنْهُ، ونَفَعَنا بِبَرَكَاتِهِ آمين.

الْحَمْدُ لله المتجلِّي بِكَمَالِهِ؛ الواحِد فِي ذَاتِهِ وصِفَاتِهِ وأفعَالِهِ، والصَّلاة والسَّلامُ عَلَى قُطْبِ دائِرَة الْوُجُودِ، وبَذْرة التجلِّي لِكُلِّ مَوْجُودٍ، ورَضِيَ الله تَعَالَى عَنْ أصْحَابِهِ الْكِرَام، وآلِ بَيْتِهِ ذَوِي النَّزَاهَةِ والاحْتِرامِ، وبَعْدُ:

فَقَدْ سَألَنِي بعض الإخوان، أن أضع تقييداً على صلاة النبي ﷺ، لابْن العربي الحاتِمِي، نُبَيِّنُ ما انْغَلَقَ مِنْ مَعَانِيهَا، وَمَا أُشْكِلَ مِنْ مَبَانِيهَا، فأجَبْتُ سُؤَالَهُمْ، بَعْد أنِ اسْتَأْذَنْتُ شَيْخَنَا الْعَارِف الرَّبَّانِي البُوزيدي الحسَني؛ لأنَّ سِرَّ الإِذْنِ أمْر كبيرٌ. واعْلَمْ أنَّ النَّاسَ فِي مَدْحِهِ ﷺ على قِسْمَيْن: قِسْمٌ مَدَحُوا شَخْصَهُ الظَّاهِر، فَذَكَرُوا ما يتعلَّق بِجَمَالِهِ الحِسِّي، وَمَا يتبَعُ ذلِكَ مِنَ الْكَمَالاَتِ الظَّاهِرَة والباطنة، وما يلتحق بِهِ من المعجزاتِ والخوارقِ؛ وهم أهْلُ الظَّاهِرِ. وقِسْمٌ مَدَحُوا سِرَّهُ الْبَاطِنِي، ونُورَهُ الأصْلِي، فَذَكَرُوا نُورَهُ المتقدِّم، وَمَا تَفَرَّعَ عَنْهُ مِنَ التجلياتِ الحِسِّيَّة، كالقطب ابن مشيش وأضْرَابه، ومنْهُمْ العارف الرَّبَّاني، والقطب الصَّمَداني، بحري زمانه، وفريد عصره وأوانه، محيي الدِّين ابن العربي الحاتِمِي، المتوفَّى في حُدُودِ القرْن السَّادِس حيث قال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الذَّاتِ الْمُطَلْسَم» أيْ عَلَى الْكَنْزِ الْمَكْنُونِ. فالْمُطَلْسَمُ: هو السَّاتر للشيءِ، والصَّوَّان لهُ. وذلِكَ أنَّ الحقَّ جلَّ جَلاَلُهُ؛ كَانَ كَنْزاً لَمْ يُعْرَفْ، أي سِرًّا خَفِيًّا غَيْبِيًّا، فَلَمَّا أرَادَ أن يُعْرَفَ، ظَهَرَ قَبْضَةً مِنْ نُورِ ذَاتِهِ، سَمَّاهَا مُحمَّداً ﷺ، فَلَمَّا تجلَّتِ الْقَبْضَة مِنْ بَحْرِ الْجَبَرُوتِ، كَسَاهَا رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ؛

وهُوَ حِجَابُ الْحُسْنِ، إذْ لاَ بُدَّ لِلْحَسْنَاءِ مِنْ نِقَابٍ، وَلِلشَّمْسِ مِنْ سَحَابٍ، لِيَبْقَى الكَنْزُ مَدْفُوناً، والسِّرُّ مَصُوناً، فَحِجَابُ الْحُسْنِ الَّذِي احْتَجَبَتْ بِهِ أَسْرَارُ الذَّاتِ هو الطِّلَسْمُ. وَالْمَعَانِي الَّتِي هِيَ بَاطِنِ القَبْضَة وكليتها هو الكَنْزُ، وهو عَيْنُ الذَّاتِ فِي مَقَامِ الْجَمْعِ، فالقَبْضَةُ المُحَمَّدِية لمَّا كَانَتْ مِنْ عَيْنِ الذَّاتِ، أُطلق عليها الذَّاتُ، ولِذَلِكَ قالَ: على الذَّاتِ المُطَلْسَمِ. وَمِنْ هذِهِ القَبْضَةِ تَفَرَّعَتِ الكَائِنَاتُ كُلُّهَا. مِنْ عَرْشِهَا إلى فَرْشِهَا، بِذَوَاتِهَا وأَزْواجِهَا. فنوره ﷺ؛ هو بَذْرَة الْوُجُودِ، والسَّبَبُ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ، فَمِنْ سِرِّهِ ﷺ، انشقَّتْ أسرار الذَّات، وانفلَقَتْ أَنْوَارُ الصِفاتِ، فكُلُّ تَجَلٍّ مِنْ تجلياتِ الحقِّ، إنما يَبْرزُ من نورِهِ ﷺ، فحياض الجبروت بِفَيْضِ أنواره متدفقة، مُنْذُ ظَهرتِ القبضَةُ، إلى مَا لاَ نِهَايَةَ لَهُ، حتَّى إنَّ أنفاسَ الجِنَان ونعيمَهَا، بارزَة من هذَا النُّور المحمَّدي؛ لأنها حسِّية، والحسُّ من حيْث هو، كلهُ مضاف لنبينا ﷺ ومَنْسُوبٌ إلَيْهِ، وإن كَانَ من عيْنِ الذَّاتِ؛ لأنَّ الإضافة لاَ تُخرجه عَنْ أصْلِهِ، ففي التحقيق: ما ثَمَّ إلاَّ الله، وَلاَ شَيْءَ سِوَاهُ.

تنبيهٌ: اعْلَمْ أنَّ الفُرُوعَ النَّاشِئَة مِنَ القبضَةِ، والمتفرِّعة عنها، كُلُّها كُنُوزٌ مطَلْسَمَةٌ أيضاً؛ لأنَّ حكْمَ البَعْضِ، حُكْمُ الكُلِّ، فالأواني طَلاَسِمُ للمَعَانِي، فكُلُّ شَخْصٍ عِنْدَهُ كَنْز بين جَنْبَيْهِ، حَجَبَتْهُ عَنِ الغَفْلةِ والوقوف مَعَ الحسِّ، والنَّظَرِ إلى وُجُودِهِ، والإنْهِمَاكِ فِي حُظُوظِ نَفْسِهِ، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عَنْهُ:

يَا قَاصِداً عَيْنَ الخَبَرْ ... غَطَّاهُ أيْنَك
الخَمْرُ مِنْكَ والخَبَرْ ... والسِّرُّ عِنْدَكْ
ارْجِعْ لِذَاتِكَ وَاعْتَبِرْ ... مَا ثَمَّ غَيْرَكْ

فَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ، وَرَيَّضَهَا وأدَّبَهَا، حَتَّى إذَا مَاتَتْ، وحَيِيَتْ رُوحُهُ، ظَهَرَ لَهُ كَنْزُهُ، وبَدَا لَهُ سِرُّهُ. وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ:

وَاتَّهِمْ إن كُنْتَ تَفْهَمْ ... لأنَّ كَنْزَكَ قَدْ عَدِمَ عَن كل طَلْسَم

وقال ابن العريف رضي الله عَنْهُ:

بَدَا لَكَ سِرٌّ طَالَ عَنْكَ اكْتِتَامُهُ ... وَلاَحَ صَبَاحٌ كُنْتَ أنْتَ ظَلاَمُهُ
فأنْتَ حِجَابُ القَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ ... وَلَوْلاَكَ لَمْ يُطْبَعْ عَلَيْهِ خِتَامُهُ
فإنْ غِبْتَ عَنْهُ حَلَّ فِيكَ وطُفْتَ ... على مَوْكب الكشفِ المصونِ خيامُهُ
وَجَاءَ حَدِيثٌ لاَ يُمَلُّ سَمَاعُهُ ... شَهِيٌّ إلَيْنَا نَثْرُهُ ونِظَامُهُ

إذَا سَمِعَتْهُ النَّفْسُ طَابَ نَعِيمُهَا وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْمُعَنَّى غَرَامُهُ

وَلاَ بُدَّ مِنْ صُحْبَةِ شَيْخٍ عَارِفٍ كَامِلٍ، يُعرِّفك كَيْفية الحَفْرِ على هذَا الكَنْزِ. وأيْنَ مَوْضِعه لتحفَرَ عليه. وإلاَّ بقيتَ جَاهِلاً بِهِ، فقيراً على الدَّوَامِ، مع كَوْن الكَنْزِ بَيْن جَنْبَيْكَ؛ وهو رُوحكَ وسِرُّكَ، فإذَا اسْتَوْلَتْ روحانيتكَ على بشريتكَ، ومعناكَ على حسِّكَ، ظَهَرَ كَنْزُكَ، وصِرْتَ غَنِيًّا كَبِيراً، تُتيهُ على الكَوْنِ بِأسْرِهِ، وتَتَعَرَّفُ فِيهِ بِهِمَّتِكَ، وبالله التَّوْفِيق، ثمَّ قَالَ رضيَ الله عَنْهُ: «وَالْغَيْبِ الْمُضَمْضَمِ» أي المحجَّبُ المَسْتُور. يُقال: ضَمْضَمَ كَذَا، إذَا سَتَرَهُ واحتوى عليه، فَهُوَ مُضَمْضَمٌ؛ أي مَسْتُورٌ، وانظر القاموس، فهو بِضَادَيْن مُعجمَيْنِ، لاَ بِطَاءَيْنِ، وَلاَ شَكَّ أنهُ ﷺ، غَيْبٌ مِن غُيُوبِ الله. وسِرٌّ مِنْ أسْرَارِهِ، لاَ يَطلعُ عَلَيْهِ، وَلاَ يُحِيطُ بِهِ إلاَّ رَبُّهُ؛ الَّذي خَلَقَهُ وأظْهَرَهُ، وَعَنْهُ ﷺ: **«والله مَا عَرَفَنِي حَقِيقَةً غَيْرُ رَبِّي»**.

وَفي تصلية القطب ابن مشيش، أيْ عنهُ «تَضَاءَلَتِ الْفُهُومُ، فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا سَابِقٍ وَلاَ لاَحِقٌ». وقال أوس القَرْني رضي الله عَنْهُ: «والله مَا رأى أصْحَابُ محمَّدٍ، مِن محمدٍ إلاَّ قشرة الظَّاهِرِ. وأمَّا الباطِنُ فَلَمْ يعرفهُ أحَدٌ». فقيل: وَلاَ ابْن أبي قحافة. والمرادُ: نَفْيُ الإحَاطةِ بسرِّهِ عليه السَّلام، ومِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُ روحهُ. وأمَّا إدْرَاكُ البَعْضِ، فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ نَصِيبٌ، عَلَى قَدْرِ التَّوجُّهِ والمعرفة، وكذلكَ الأولياء رضيَ الله عنهم، يتفاوتون في إدراكِ باطِنِهِ عليه السلام، على قَدْرِ معرفتهم بالله، فمنهم مَنْ يُدْرِك شيئاً مِن سِرِّه ﷺ، ومنهُمْ مَنْ يُدْرِكُ رُوحَهُ، ومنهم مَن يُدْرِكُ قَلْبَهُ، ومنهُمْ مَنْ يُدْرِكُ عَقْلَهُ، ومنهم مَن يُدْرِك نفسَهُ، فأهْل الرُّسُوخ والتمكين، يدركون سِرَّهُ ﷺ؛ الذي هو سارٍ في كل شيْءٍ؛ فلذلك لا يغيبُون عنهُ طرفَةَ عَيْنٍ، وأهْلِ التلوين قَبْلَ التمكينِ، يدركونَ روحَهُ، فَيُشاهِدونَهُ فِي غَالِبِ الأوقَاتِ، وأهْل السَّيْرِ من المريدين، يُدْركونَ قَلْبَهُ، فيحصل لهم كَمَال الإيقانِ، وتقل رُؤْيتهم لهُ عليه السلام، وأهْل الحِجابِ من عامَّةِ الصَّالحين، يُدْركونَ عقلهُ، أوْ نفْسَهُ. فَيَرَوْنَ فِي المَنَامِ، وفي اليقظة، شخصه الحسِّي، عَلَى قَدْرِ فَنَائهم فيهِ، وأهْلُ هذا المَقام، هم أهْل حضرة الأشباحِ، كما أنَّ السَّابقينَ قبله، هم أهل حضرة الأرواح والأسرار، والله تعالى أعلم، ثم قال رضيَ الله عَنْهُ: «وَالْكَمَالِ الْمُكْتَتَمِ». وَلاَ شَكَّ أنه ﷺ، جمعَ الكَمَالاَتِ كُلَّهَا. فَكَانَت صورته الشريفة في غَايَة الجمالِ، وروحَهُ المُطَهَّرة، في غاية الكَمَالِ. وسِرُّهُ البَاهِر، في غاية التَّمام. وقدِ اجْتَمَعَ فيهِ مِنَ الكَمَالاَتِ والمحاسِنِ، ما لم يجتمعْ فِي مخلوقٍ قطُّ، وكلَ كمالٍ ظَهَرَ في غَيْرِهِ، فإنَّما هو

مُعارٌ منهُ. وَرَشْحَةٌ مِنْ رشَحَاتِهِ، وكل نُورٍ أو سِرٍّ نَالَهُ غَيْرهُ، فإنَّما هو مُقْتَبسٌ من نُورِهِ، كما قال البوصيري رضي الله عَنْهُ:

فَكُلُّهُمْ مِن رَسُولِ الله ملتمس غَرْفاً مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ
وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمُ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلمِ أَوْ مِنْ شكلَةِ الحِكَمِ
فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

إلاَّ أنَّ الحق جلَّ جلالهُ كَتَمَ ذلِكَ الكَمَال، وحجَبَهُ، ولَوْ أَظْهَرَهُ، لَعُبِدَ مِنْ دُون الله، كَمَا عُبِد عِيَسى، فكَان كَمَالُهُ وجماله مُكْتَتَماً، لاَ يَطَّلِعُ عليه، إلاَّ مَنْ صَقُلَتْ مِرْآةُ قَلْبِهِ. فنظَرَ إلى بَاطِنِهِ دُونَ ظَاهِرِهِ، كَالصِّدِّيق، وَمَنْ كَانَ على قَدَمِهِ، والله تَعَالَى أعْلَمُ، ثمَّ قَالَ: «لاَهُوتُ الْجَمَالِ، وَنَاسُوتُ الْوِصَالِ» قلتُ: اللاَّهوتُ عبارة عن أسْرار المعانِي الباطنية القائمة بالأشياءِ؛ وهي أسْرار الذَّاتِ. والنَّاسُوتُ عبارة عن حسٌ الأوانِي الظَّاهِرَة. والحاصل: اللاَّهوت: ما بَطن. والنَّاسوت: ما ظَهر. ومعْنَى كَلامِهِ: أنَّ كل جَمَالٍ في عالَم الملكوتِ، فالمصطفى عليه السلاَمُ، أصْلُهُ ومَعْدنهُ وسِرُّهُ ولُبُّهُ؛ فَهُوَ مَعْدِنُ الجمَالِ، وأصْلُ الكَمَالِ. فما تبهَّجَ رياض الملكوتِ، إلاَّ بِزَهْرِ جَمَالِهِ، ما ظَهَرتْ بَهْجَة المُلْكِ إلاَّ بحسْنِ كَمالِهِ؛ وهو معنى قولِهِ: لاَهوتُ الجمالِ، أي أصْله ومعدنُهُ، وباطنهُ ولُبُّهُ. فَمِنْ مَعْدِنِ سِرِّهِ ﷺ، تَفَرَّعَتْ أنواع الجمال، وكأنه يشير إلى جمال المعاني؛ الذي يسْبي الأرواحَ، ويغيب العقول، كما قال الشاعر:

تَسرَانِي غَائِباً عَنْ كل أيْنٍ كَأْسُ المعَانِي حُلْوُ المَذَاقِ

وَبالْجُمْلَةِ: فجمال المعاني؛ هو من جمال سِرِّهِ ﷺ. فيه عُرِفَ، وفيه ظَهَرَ، وما ذاق أحد شيئاً من حَلاَوة المعانِي، ولذَّة الشهودِ، إلاَّ باتباعِهِ، والتخلق بأخلاقه ﷺ، فهو لاَهُوت جمال المعانِي ومَعْدنها. فالمعاني الباطنية تُسَمَّى ملكُوتاً، والحسّ الظَّاهر، يُسَمَّى مُلْكاً، والبَحْرُ المحيط: مِنَ الأسْرَارِ اللطيفة الباقية على أصْلها؛ الذي تَتَدفَّقُ أنوَارُ الكَائِنَاتِ مِنْهُ، يُسَمَّى جَبَرُوتاً. فجمال المَعَانِي، إنَّما عُرِف وظَهَر بِهِ ﷺ. وجمال الحِسِّ إنما تَبَهَّجَ بنورهِ ﷺ؛ وإلى هذا أشار القطب ابن مشيش رضي الله عنه بقولِهِ: «فَرِياضُ الملكوتِ بِزَهْرِ جَمَالِهِ مُونقة، وحِيَاضُ الجَبَروت بِفَيْضِ أنوارِهِ مُتَدفِقة». وقوله: نَاسُوتُ الوِصَالِ: يُشير إلى ظاهرِهِ ﷺ. كَانَ في مَحَلِّ الوصال والاتِّصَالِ، ولم يَكُن في محل الفرْق والإنفِصَالِ. فكما أنَّ

باطنَهُ كان مَعْدِنَ الأسْرَار، كذلك ظاهره محلّ الأنوار، فكَان مستغرقاً في البَحْرِ الأحديةِ، بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، والله تَعَالَى أعْلَمْ. ثم قال رضيَ الله عَنْهُ: «طَلْعَةُ الْحَقّ»: أي أوّل تجلّيهِ؛ وظهورِهِ فِي عَالَمِ الغَيْبِ، فأوّلُ مَا طَلَعَ مِن أسْرار الذّاتِ الكَنْزِيةِ. القَبْضةُ المُحَمَّدِيَّةُ، فمنها انشقتْ أسْرار الذّاتِ، وظَهرتْ أنوارُ الصفاتِ. فَلَوْلاَه عَلَيْه السّلامُ، مَا ظَهَرَ الْوُجود، وَلاَ عرف المَلِك المَعْبُود؛ فهو الواسطة بيْن الله ومخلوقاتِهِ، فَلَوْلاَ الواسطة لذهَبَ الْمَوْسُوط.

ثم إنّ القبضَة المُحَمَّدية هِيَ عَيْن الذّاتِ، بَرَزَتْ مِنْ عَيْن الذّاتِ، لَكِنْ تُسَمّى مَا تَكَشّف مِنْهَا وتحسّسَ: محمّداً ﷺ، وأمّا ما بَطَنَ، فَبَاقٍ عَلَى أصْلِهِ؛ مِنَ اللاّهُوتية، فالقدرُ الّذي سَمّاهُ مِنْهَا محمّداً ﷺ. إنّما هو جِسُّهَا، وَجَوْهَرِيتها الظاهر. وأمّا ما بطن من المعاني؛ فَهُو لاَهُوتي؛ ولَيْسَ هو بِحُلُولٍ؛ لنَفْيِ الْغَيْرِيةِ وَمَحْوِهَا عَنْ نَظَرِ العارفينَ. ولمّا كَانَتْ تلك القبضةُ بِهَا ظهرَ الكنْزُ المَدْفُونُ، وَبِهَا انكشَفَ السِّرُ المَصُونُ، شَبَّهَهَا بِثَوْبِ النّقابِ؛ الّذي يُغَطّى بِهِ الوَجْهُ الحسَنُ، فقال رَضِيَ الله عَنْهُ: «كَثَوْبِ عَيْنِ إنْسَانِ الأَزَلِ، فِي نَشْرِ مَنْ لَمْ يَزَلْ»: فشَبَّهَ الأَزَلَ، بإنسَانٍ لَهُ عيْن حسنى، كَانَتْ محجوبةً مصونةٍ، مستُورة بثوْبٍ، فلمّا أرَاد أن يُظهِرَهَا، كَشَف ثَوْبَ نِقَابِهَا، وظَهَرَتْ محاسِنُهَا، وبَاهِرُ جمالها، كذلكَ الخمرةُ الأزلية، كَانَتْ لطيفة خفية، فلمّا أرادتْ أن تظهر، كشَفَتْ عن وَجْهِ سِرّهَا، فأظهرتْ مِن جَمَالِهَا نُور القبضة المحمدية، ثم انتشَرَ من الْقَبْضَةِ سائرُ الفُرُوع الكَوْنِية، وهذا مغنَى قَوْلِهِ: نَشْرُ مَنْ لَمْ يَزَلْ؛ أيْ هُوَ عليه السّلامُ، كَثَوْبِ عَيْنِ إنَسانِ الأزَلِ، ويَرْجِعُ الكَلاَمُ إلى قولِهِ: هو كَثَوْبِ عَيْن الأزلِ، المنشور عليه، فكشفه في إرادة نَشْرِ مَنْ لَمْ يَزَلْ؛ أي عِنْدَ إرادة إظهار من لم يَزَلْ من الفروع الكَوْنية الْحَدِيثة، وهذَا مُجَرَّد اصْطِلاَحٍ: يقولونَ فِي السِّرّ الأزلي في حَال الكَنْزِية أزل. وفيما تفَرَّعَ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ. والكلّ واحِدٌ. الفَرْعُ عيْن الأصل. والأصل عَيْن الفَرْع. ما تجلّى بِهِ فِيما لَمْ يَزَلْ، كَان الله وَلاَ شيء مَعَهُ، وهو الآنَ على ما عليه كَانَ، ولله دَرُّ الْقَائِلِ:

فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ الله لَمْ يَبْقَ كَائِنُ ... فَمَا ثَمّ مَوْصُولٌ وَلاَ ثَمّ بَائِنُ

بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ الْعِيَانِ فَمَا أرَى ... بِعَيْنِي إلاَّ عَيْنَهُ إذْ أُعَايِنُ

ثُمَّ قَال رَضِيَ الله عنهُ: «مَنْ أقَامَتْ بِهِ نَوَاسِيتُ الْفَرْقِ، فِي قَابِ نَاسُوتِ الْوِصَالِ»: مَن بَدَا من الذّاتِ، ونَوَاسِيتُ جمع نَاسُوتٍ: وهو ما ظَهَرَ مِنَ الحسّ.

كَمَا أَنَّ اللاهوت ما بَطَنَ مِنَ المَعْنَى، وقابُ القَوْسِ: ما بين مَحَلِّ وتره وطَرفِهِ.
والمَعْنَى: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الذَّاتِ المُطَلْسَمِ، الَّذِي أَقَامَتْ، أي دَامَتْ بِهِ، أي بِبَرَكِ اتِّبَاعِهِ، أَشْبَاحُ أَهْلِ الفَرْقِ، فِي مَقَامِ القُرْبِ، فَكَانُوا مِنْ حَضْرَةِ الوِصَالِ، مقدار قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فأَقَامُوا فِي القُرْبِ مِنَ الله بِهِ ﷺ، وَلَوْ أَعْرَضُوا عَنْهُ لَطُرِدُوا وأُبْعِدُوا، وإنَّما عَبَّرَ بِالنَّوَاسِيتِ، دونَ القلوب والأرواح؛ لأنَّ القُلُوبَ والأرواحَ مَحَلُّهُمَا الجَمْعُ بناسوتِ الوِصَالِ كِنَايَةٌ عَنْ حَضْرَةِ الوِصَالِ. وَلاَ شَكَّ أَنَّ مَنْ تَبِعَهُ ﷺ، وتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ، وتخلَّقَ بِأخْلاقِهِ، نَالَ القُرْبَ بَعْدَ البُعْدِ، والوِصَال بَعْد الفِرَاقِ، فإنه ﷺ، باب الله وحجابه الأعْظَم؛ فَمَنْ رَامَ الدُّخُولَ على الله مِن غَيْر بَابِهِ، طُرِدَ وأُبْعِدَ، كَمَا قَالَ القَائِلُ:

وأَنْتَ بَابُ اللهِ أيُّ امْرِئٍ ... وَافَاهُ مِنْ غَيْرِكَ لا يَدْخُلُ

كَمَا أَنَّ مَنْ أَرَادَ الوصولَ إِلى المُلُوكِ، لا بُدَّ أن يتحبَّبَ إلى وُزَرَائِهِمْ، ويَهْدِي لَهُمْ، ويخدُمَهُم، فَحِينَئِذٍ يُوصلونَهُ إلى المَلِكِ. فَكَذَلِكَ مَنْ أراد الدُّخول إلى الله. لاَ بُدَّ أَنْ يخدُمَ رسول الله ﷺ بِكَثْرةِ الصَّلاةِ عَلَيْهِ، ويُعَظِّمَهُ، ويُعظم ما انتسبَ إِلَيْهِ، ويُعَظِّمَ خلفاءَهُ؛ وهم الأولياء، ويُقبِّل التراب مِن تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ، فحينئذٍ يُوصِلُونه إلى الحضْرَةِ، وإلاَّ بقي بعيداً مِنْ حَيْثُ يَظُنّ القُرْب، وبالله التوفيق، ثم قال: «الأَقْرَبِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ»: أي الأقرب من غَيْرِهِ، من سَائر الرُّسُلِ إلى طُرُقِ الحقِّ، فَكَانَتِ الرسل كُلُّها تدعو إلى الله، وتبيِّنُ الطُّرُق إلى الوصولِ إِلَيْهِ، ونَبِيُّنا محمَّدٌ ﷺ؛ هو أقْرَبُ مِنْهُمْ إلَى طُرُقِ الْحَقِّ. فَبَيَّنَ من اسم الطريق، ومعالم التحقيق، في أقرَبِ وَقْتٍ، فَهَدَى الله على يَدَيْهِ من الخلق فِي زَمَانٍ يَسيرٍ، ما لهم يَهْدِ على يَدِ غَيْرِهِ، في الأَزْمِنَةِ المتطاولة، وكذلكَ مَنْ كَانَ على قَدَمِهِ من الأَوْلِيَاءِ الجامعينَ بَيْنَ الشريعة والحقيقة يَهْدي الله على أَيْدِيهم الجَمَّ الْغَفِيرَ، فِي زَمَانٍ يسيرٍ؛ لأنَّهُم على بصيرَةٍ. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾. أي وَمَنِ اتَّبَعَنِي يَدْعُو إِلَى الله على بَصيرة؛ وهي بصيرة العِيَانِ، والذَّوْق والوُجْدَانِ، لا بَصِيرة التَّقْلِيد؛ التي هِيَ ناشئة عَنِ الدَّلِيلِ والبُرْهَانِ، ثمَّ قَالَ: «فَصَلِّ اللَّهُمَّ بِهِ فِيهِ مِنْهُ عَلَيْهِ وَسَلِّمْ»: قلتُ: إذَا فَنِيَ العَبْدُ عَنْ نَفْسِهِ وحِسِّهِ، لَمْ يَرَ إلاَّ أَنْوَارَ النُّبُوءَةِ ظَاهِرَةً، وأَسْرَارَ الرُّبُوبِيةِ بَاطِنَةً، فإذَا صَلَّى على رسول الله ﷺ، رَأى نُورَهُ ﷺ، لاَ هُوَ، وإذا سَبَّحَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَوَحَّدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وإلى هذا، أشار الهروي، حينَ سُئِلَ عَنِ التوحيد الخاصّ بِقَوْلِهِ:

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدُ مِنْ وَاحِدٍ فَكُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
وَتَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَفْسِهِ تَثْنِيَةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ وَتَوْحِيدُ غَيْرِهِ لاَحِدُ

وإلى هذَا المَعْنَى، أشَار الششتري بِقولِهِ:

إِنَّا بِاللَّهِ نَنْطِقُ وَمِنَ اللَّهِ نَسْمَعُ

وهذه نتيجة محبَّة الحقِّ للعَبْدِ، لقولِهِ: «فَإِذَا أحْبَبْتُهُ كُنْتُهُ». وَمَعْنَى كَلاَمِ الشَّيْخِ: فَصَلِّ اللَّهُمَّ بِهِ، لاَ بِنَفْسِي فِيهِ، أيْ فِي حَضْرَتِهِ، بِحَيْثُ يَسْمَعُهَا مِنِّي بِلاَ وَاسِطَةٍ، لاَ فِي حَضْرَةِ نَفْسِي، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ، قِيلَ لَهُ: أرَأيْتَ صلاة المصلينَ عليكَ فَمَنْ يأتي بعدك، ما حَالَتُهُمْ عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: «أمَّا أهْلُ المَحَبَّةِ فأسْمَعُ صَلاَتَهُمْ، وأعْرِفُهُم، تعرض عَلَيَّ صَلاَةُ غَيْرِهِمْ عَرْضاً». وأهْلُ المحبَّة؛ هم أهْل الفَنَاءِ، الَّذِينَ يُصَلُّونَ عَلَى سِرِّهِ، ويُشَاهِدُونَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ، كما قال الْمُرْسِي وغَيْرُهُ؛ وهم أهْلُ الجمع. وأمَّا أهْلُ الفَرْقِ، فتعرض صَلاَتُهُمْ عَلَيْهِ عرضاً. وقولُهُ: مِنْهُ عَلَيْهِ؛ أيْ وتكون تلك الصَّلاة صادرةً مِنْهُ، وَارِدَةً عَلَيْهِ، بِلاَ وَاسِطَةِ أحَدٍ، فَالْعَارِفُ لَمْ تَبْقَ لَهُ وَاسِطَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله، وَلاَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رسول الله ﷺ، بل يأخُذُ الأشْيَاءَ مِنْ مَعَادِنِهَا، فالحقيقة يأخُذُهَا مِن مَعَادِنِهَا؛ وهو شُهُود الذَّات الأقدَس، بِلاَ واسِطَة جِسِّ الأكْوَانِ، بَلْ تُمْتَحَى الأكْوَانُ، وَتُمْحَقُ مِنْ نَظَرِهِ، فَلاَ يَرَى إلاَّ المُكَوِّنَ، ويأخُذُ الشريعة مِن مَعَادِنِهَا؛ وهي الكِتَابُ والسُّنَّةُ؛ إنْ كَانَ أهْلاً، وإلاَّ اسْتَفْتَى قَلْبَهُ، ولذَلِكَ قيلَ: الصُّوفِي لاَ مَذْهَبَ لَهُ: أيْ لا يُقَلِّد أحَداً مِنْ أهْل الْمَذَاهِب. والسَّلامُ: هُوَ التَّأمِينُ، أيْ أمِّنْهُ الله مِنْ كُلِّ مَا يَخَافُهُ عَلَى أُمَّتِهِ، والله تَعَالَى أعْلَمُ، وصلَّى الله على سيِّدنَا محمَّد الحبيب المحبوب، والشفيع المُقَرَّب، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيماً، وَآخِرُ دَعْوَانَا أنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمينَ اهـ.